التّفكير الجذري في الترابط العلائقي بين "الوظيفيّة" والتّصميم والسّيميوطيقا من خلال مدوّنة أثاث الشّارع مثالا

د. إيمان الصّكلي
دكتوراه في علوم وتكنولوجيات التّصميم "المدرسة العليا لعلوم وتكنولوجيات التّصميم"
جامعة منّوبة، تونس.
Email:imenimen.sakly@gmail.com

الملخّص:

إنّ أحقّ العلوم بالمعرفة والتعلّم، وأجدرها بالتحفّظ والنشر، تلك العلوم التي حظيت بالتعمّق، وخضعت للتحرّي والتفحّص. ولما كان ذلك، فلا يكفي أن يكون للمختصّ دراية بمنهجيّات وتقنيات البحث العلمي، بل ينبغي عليه أن يكون ملمّا أيضا بأصول وجذور البحث العلمي حتى لا يقع في فخّ السّذاجة أو السطحية العلميّة. والتصميم كغيره من العلوم يحتاج إلى إعادة النظر في مفاهيمه الأساسيّة التي كانت قد شكّلت جوهره، وإلى مساءلة ما صار منها في موضع البداهة.

لقد نشأ التّصميم في ظلّ ما جادت به المبادئ المستقلّة لعدد من الاختصاصات العلميّة. ولعل الوظيفيّة التي برع فيها خاصة "علماء الاجتماع" و"علماء علم النّفس الصّناعي"، هي أحد أهمّ هذه المبادئ، والمفهوم الأساسي والمفصليّ في علم التصميم. ولأنّ المفهوم انبثق من التعدّد والاختلاف النّاتج عن تقاطع مجموعة من الاختصاصات، لا مناص من البحث في تجلّيات هذا التّلاقح، والكشف عن فروعه المتشعّبة.

الكلمات المفاتيح: التفكير الجذموري، التّصميم، أثاث الشّارع، الوظيفيّة، السيميوطيقا.

Radical thinking on the relational interrelationship between "functionalism", design and semiotics through

The Street Furniture blog for example

Abstract

The sciences that are most deserving of knowledge and learning, and those most worthy of being reserved and published, are those sciences that have been in-depth and subjected to investigation and scrutiny. Since that is the case, it is not enough for the specialist to be familiar with the methodologies and techniques of scientific research, but he should also be familiar with the origins and roots of scientific research so as not to fall into the trap of scientific naivety or superficiality. Design, like other sciences, needs to reconsider its basic concepts that had formed its core, and to question what has become of them.

The design arose in the light of what was proclaimed by the independent principles of a number of scientific disciplines. Perhaps the career in which he excelled, especially "sociologists" and "industrial psychologists", is one of the most important of these principles, and the basic and detailed concept in design science. In addition, because the concept emerged from the plurality and the difference resulting from the intersection of a group of disciplines, it is inevitable to search for the manifestations of this cross-fertilization, and to reveal its manifold branches.

Keywords: Radical thinking, design, street furniture, functionality, semiotics.

الإشكاليّة:

بالرّجوع إلى الأصل الفلسفي، اكتسى مفهوم "الوظيفيّة" كنهه بفضل الدّهشة، والمنطق (البناء العقلي) اللذين أسّسا لوجوده بداهة " Axiome ". ولكنّ المفهوم أضحى بفعل الزّمن مسلّمة من مسلّمات العقل، وشتّان ما بين البديهة والمسلّمة.

ومن المسائل التي تثير فينا أيضا الدّهشة، وتدفعنا إلى أن نتفلسف، هي أنّه، وعلى الرّغم من مرور الزّمن على نشأة المفهوم، ظلّت الوظيفيّة تعود لتطفو على السّطح في كلّ مرّة أردنا فيه مناقشتها والبحث في معادلاتها مع سائر المفاهيم التصميميّة التي اقترنت بها، ومنها الشّكل الجيّد والأداء والممارسة والأرغونوميا...

الأهداف:

لعلّ اختيارنا إعادةَ البحث في مفهوم الوظيفيّة، يعود في جزء كبير منه إلى الجوانب الخفيّة والمستترة في المفهوم، وبمعنى آخر، إلى العلامات القابعة في ثناياه اصطلاحا وتداولا. إذن، يحتّم علينا التّفكير الجذموري La pensée rhizomatique في العلامة وتأصيلها، فهمَ الجهاز العلائقي بين التصميم والوظيفيّة والسيميوطيقا، كفروع ظاهرها مستقلّ، وباطنها مترابط ومتجذّر في العلامة le Signe من خلال تحليل مدوّنة "أثاث الشّارع" كمثال.

المنهج العلمي:

اعتمدنا في هذه الورقة البحثيّة على المنهج النقدي، وقد ابتعدنا في ذلك عن الطريقة الانطباعيّة الذّاتيّة أو المعياريّة الذّاتيّة في التّعامل مع مفهوم "الوظيفيّة"، واتّجهنا نحو تحليل الموضوع وتقويمه بطريقة وصفيّة علميّة. ولم يفُتنا أيضا في هذه الدّراسة أن نبحث في المعاجم والقواميس العلميّة المختصّة في عدد من الحقول العلميّة التي كنّا قد تناولناها في متن المقال. ومن الجدير بالذّكر أنّ أغلب المجالات التي تطرّقنا إليها بالتّحليل تنتمي إلى الدّراسات الغربيّة ويعود ذلك بالأساس إلى التخصّص الأكاديمي لأهمّ روّادها. وبناء على ما سبق انتقلنا في القسم الثاني من المقال إلى اعتماد منهج الدّراسيّة الميدانيّة، فمن خلال مدوّنة أثاث شارع مدينة سوسة التّونسيّة وتحديدا خارج سور مدينتها العتيقة بحثنا في أوجه حضور مفهوم الوظيفيّة وتطبيقاتها الممكنة.

المبحث الأوّل: مفهوم الوظيفيّة وعلاقته بعدد من الاختصاصات العلميّة:

في علم الاجتماع، يستدعي التّفكير في الوظيفية (البنائية الوظيفية) استحضار الأنساق والسياقات ككلّ متناغم، فالنسق ما هو إلا مجموعة من العناصر المنظّمة والمتداخلة التي يترتب تركيب بعضها على البعض الآخر تحقيق الوظيفة الكلية، فالتصميم الحضري والتصميم الصناعي والمصمم والمجتمع كلّها عناصر متعددة تعمل معاً كوظائف لتحقيق وظيفة كلانيّة معيّنة.

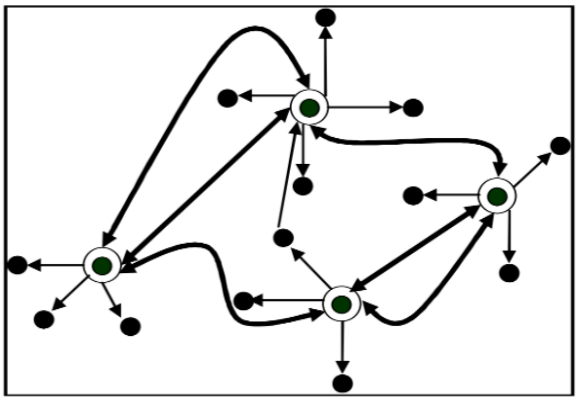

رسم بياني رقم (1) يوضّح العلاقات والتدفّقات بين الأنساق في البنائيّة الوظيفيّة

وفي علم الاجتماع الحضري، تبنّى دور كايم، براون، مالينوفسكي فكرة الوظيفيّة باعتبارها نظريّة قائمة على الثنائيات مثل ثنائيّة الجزء والكلّ وثنائيّة المجتمع والنظم الاجتماعيّة (الأنساق) وثنائيّة مركز والأطراف (على سبيل المثال: المدينة والأرياف)، وأيضا ثنائيّة الأبنية الاجتماعيّة والظّواهر اجتماعيّة (الظواهر الاجتماعيّة هي عمليات وآثار ناتجة عن البناء الاجتماعي).

وفيما يتعلّق بمجال التّصميم الحضري، فالوظيفيّة بماهي مفهوم يُرادف السّياقيّة مرّ بعدّة أطوار تاريخيّة فمن المدخل السّلوكي المركّب الذي اهتمّ بسلوك الفرد اكتسابا وفطريّة في الفضاء الحضري، مرورا بالمدينة الملصقة وغاياتها الشكليّة، ثمّ بتركيز "روب" و"ليون كرير" على الفراغات الحضريّة وتصاميمها، وصولا إلى تأصيل ديفيد جوزلينج وبرينيت برولين لمفهوم الوظيفيّة في الفضاء الحضري عرف المفهوم أوجها مختلفة ومتنوّعة.

جدول رقم (1) يوضّح أهمّ الاتّجاهات المنبثقة عن "السياقيّة" وتطوّرها في التّصميم الحضري

"السياقية: "مكونات تركيب المدينة في مستوى العلاقات الشكلية.	"لغة الأنساق"، المدخل السلوكي المركب	كريستوفر الكسندر
	"المدينة الملصقة"	كولن رو
	"فكر ملء فراغات المدينة"	روب وليون كرير
	"احترام المفهوم الأصيل للفضاء الحضري"	ديفيد جوزلينج وبرينت برولين

وأمّا في مجال التّصميم الصّناعي، فيعود مفهوم الوظيفية في جذوره إلى المعماري الكاتب الروماني ڤيرتوڤيوس (Virtuvius) الذي عرف الخَدَمية أو (utilitas) أصل كلمة (Utility) الإنجليزية كأحد أركان العمارة. أتى بعد ذلك المعماري الأمريكي لويس هنري سوليڤان (Louis Henry Sullivan) ام 1896 ليعيد المفهوم من جديد ويصبح هو أبو الفكر الوظيفي أو (Functionalism) في التصميم.

بناء على ما تقدّم نستخلص ارتباط الوظيفيّة بالمجالات المعرفيّة الآتية: علم الاجتماع الحضري، علم التّصميم الحضري، وعلم التّصميم الصناعي، وفيما يلي إيجاز ذلك:

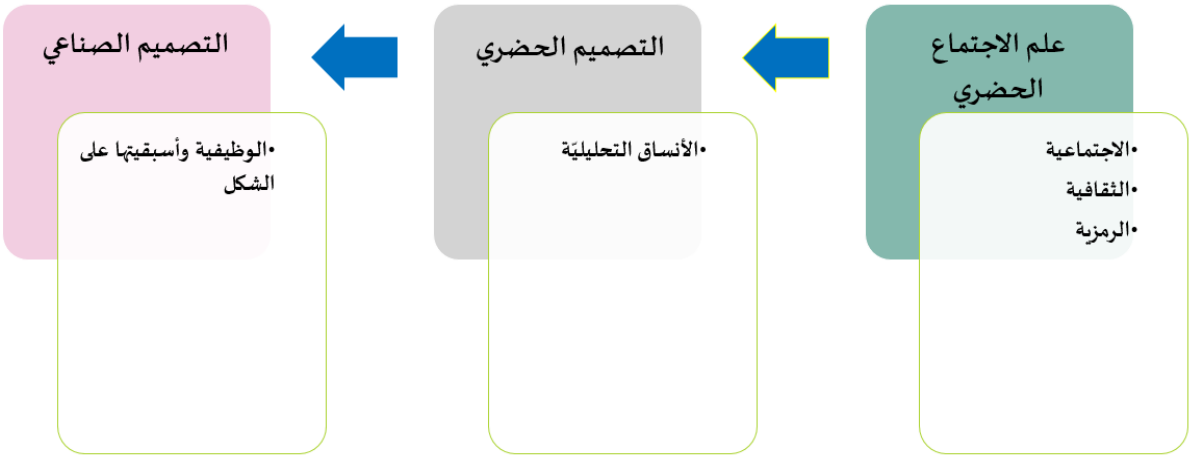

رسم بياني رقم (2) يوضّح علاقة الوظيفيّة بالمجالات العلميّة

المبحث الثاني: جذور الوظيفيّة في مجال التّصميم الصناعي وفتوحاتها التأويليّة

المطلب الأوّل: الوظيفيّة محدوديّة أم رمزيّة؟

كرست المكننة ترسيخ مطلب أساسيّ ألا وهو الوظيفيّة، وذلك تماشيا مع القيم الصّناعيّة كالمردودية والنّجاعة والإنتاجية، بدءا بالتصنيع والتركيب ووصولا إلى التخزين والتسويق. لهذا السبب تمّ الاشتغال على

هذا المفهوم واعتبار رمزيّته التّقنية مبدأ أساسيّا للرّبح، الذي تنافس عليه المصانع سعيا إلى تحقيق الوفرة في الإنتاج والإنتاجية.

وقد مثّل ازدهار الصّناعة في الفترة التي سبقت الثّورة الصناعيّة في أوروبا تعزيزا للمطلب الوظيفي. وحيثُ لم تكن الجماليّة والأرغونوميا أولويّة قصوى لدى الشّركات المصنّعة حينها، فقد ارتبط هذا المفهوم بضوابط وشروط في غاية الصّرامة من النّاحية الشّكليّة التي جاءت مخاطبة للذّوق العام في تلك الفترة وتعبيرا عن احتياجات المجتمع الغربي ومواكبة لسماته الحضاريّة، النفسيّة. هذا وقد شمل المفهوم في مرحلة لاحقة الأثاث الذي وُجّه إلى فضاءات المدن، ويستهدف المفهوم اليوم الرمزيّة الفنيّة والتّاريخيّة التي اقترنت بهما والتي اكتسبها من الاتفاق الجماعي.

"والوظيفيّة الرّمزيّة هنا يعتمد جزء منها على مدى استجابة الجمهور للأشياء المصمّمة من قبل المصمّم بوصفه الشّخص الذي يسعى إلى تلبية حاجات مستعملي الأثاث، وبعض هذه الاستجابة تخضع حتما لمفاهيم الماضي المتجسّدة في الأثاث ذات القيمة التّاريخيّة في ثقافة المجتمع المُعاصر"[1].

من هذا المنطلق، تتحقّق الوظيفيّة الرّمزيّة نتيجة عمليّة إدراكيّة عميقة تفوق المستوى الاستعمالي(الفاعليّة) والنفعي الطّبيعي، تسقط الذّوات والأنوات عليها معاني ودلالات ضمنيّة جديدة ذات أبعاد زمنيّة متشابكة تضاف إلى المرجع الوظيفي الأصلي.

بالمقابل، يثار سؤال رئيسي يتعلّق بأسبقية الوظيفة على الشكل أو هو يتعلّق بالمبدأ الوظيفي؛ كيف تكون الوظيفيّة خلاّقة ومنتجة للرّموز والدلالات أثناء الممارسة التصميمية؟

[1] آمال برواق تحت إشراف د. فايزة يخلف، **سيميولوجيا الفضاء ودلالة التمثّلات المعماريّة**، (ماجستير تخصّص سيميولوجيا الاتّصال)، جامعة الجزائر03، كليّة العلوم السياسيّة والإعلام، قسم علوم الاتّصال والإعلام، الجزائر–قسنطينة، 2011/ 2012، ص 150.

المطلب الثاني: استراتيجيّة المصمّم وفخّ مفهوم الوظيفيّة

في تعريف سولفيان للوظيفة يقول أنّها "**قوّة تريد أن تُعبّر عن نفسها، وهي الحياة والرّوح وأنّ الوظائف تبحثُ عن أشكالها، وأنّ الأشكال هي المظهر الخارجي للقوى والاحتياجات الدّاخليّة والوظائف والأشكال كلّ مترابط ومتداخل وممزوج ومندمج**".[2]

قصدنا من تعيين ماهية الوظيفة ارتباطها بالمجالات المعرفيّة الأخرى التي تنتمي إليها مفردات أثاث الشّارع، ومن حيث ارتباطها الوثيق بمفهوم وظائف المجتمع ووظيفة التّصميم الحضري، وغيرها من الوظائف الحضريّة الأخرى. لهذا السّبب وجّهت وحدات الأثاث في المدن بالأساس نحو قيمة استعمالية محدّدة، وموظفة له ضمن معجم دلالي ووظيفي بعينه، ويعود وبالأساس إلى تلك العلاقة الحوارية بين المصمّمين والصناعيين والوظائفيين الذين يشتغلون على نفس الحقل الدلالي والمفاهيمي.

فمن وجهة نظر مصمّم الوظيفة، فإن التحدّي الرّئيسي أمامه يتمثّل في تصميم حركة المستعمل وتقييده، واستباق الاحتمالات المتوقعة وغير المتوقعة للاستعمال. وهو يُعوّل في ذلك على حدس المستعمل وقدراته على التنبؤ بردود الأفعال، وحنكته في تصوّر الأفعال الجمعيّة وسرديّتها.

على هذا الأساس، فإنّ الأهداف التي وضعها المصمّم في الموضوعات الوظيفيّة، تحقّقت بفضل الاستعمال. فأصبحت الموضوعات "تُؤوّل"، و"تُعيّن"، و"تُحقّق التّفاعل"، و"تُبدي دلالة".

وممّا هو جدير بالذكر في تحليلنا لمفردات الأثاث في المدن هو تلازم اقتران الوظيفيّة بالقيمة الاستعماليّة اللتين تختلفان في جوهرهما عن الاستخدامية، لما تحيله هذه الأخيرة من معاني سلبيّة جُبلت على اللّفظ، إذ نقول "نستخدم المنتج التكنولوجي"، ولا نقول "نستعمل المنتج التكنولوجي". بالتّالي يتميّز المستعمل عن المستخدم كونه يضفي معنى على الموضوعة، على عكس المستخدم الذي يوظّف جسده توظيفا آليّا.

يخلق المصمّم الفعل الوظيفي الأوّل للموضوعة بواسطة فاعل وظيفي ثاني هو المستعمل.

من هذا المنطلق، يكون الجسد أداة للتّفكير التّصميمي وغايته في هذا الإطار، يستحيل التّفكير التّصميمي إبداعا وخلقا للوظائف.

---

[2] رمضان بسطاويسي رمضان غانم، **جماليّات الفنون وفلسفة تاريخ الفنّ عند هيجل**، (المؤسّسة الجامعيّة لدراسات النّشر والتّوزيع، لبنان، 1996)، ص20.

"إنّ المصمّم باشتغاله على هذا المفهوم يبُثّ رسالة أخلاقيّة سامية، حيثُ أنّه يع تماما إمكانيّات المستعمل وقدراته الذهنيّة والجسديّة، وفي ذلك تقدير واحترام"[3].

من هذا المنظور، يفتح المصمّم آفاقا جديدة أمام المستعمل ليس فقط في كيفيّة التّفاعل مع الموضوعة، وإنّما وأيضا في كيفيّة التّفاعل مع الجسد ذاته.

إنّها دعوة مفتوحة إلى خوض تجربة التّصميم وقيوده الوظيفيّة، واختبار إمكانيّات وحدة الجسد والنفس وتحرّرهما من الموضوعة المقيّدة وظيفيّا، إذن هو تفكير في التّصميم، ومُحرّك للفعل المبتكر.

هذه الخاصية للمنتج الذي يندرج تحت خانة مفهوم **الوظيفية (fonctionnalisme)** تثير إمكانيات متعددة من الاحتمالات السرديّة للأفعال وللأحداث وأيضا للوضعيّات الجسديّة.

"إنّ مقعدا غير مريح يمكن له أن يكون قيّما فقط عندما يوظّف لتعليق قطعة من الثياب أو عندما يقسم إلى شطرين الفضاء من حوله[4]".

فالجسد هنا هو أساس الحركة المتّجهة نحو الأشياء وأساس الفعل والوجود الإنساني.

تضبط الوظيفة سمات الموضوعة على الخروج من قوقعة التلقي السّلبي الجاهز والآلي للتّعامل مع المنتج والبحث على الفعل باعتبار قدرته على الاستقبال والعطاء ومنح المنتج إمكانية التشكيل والتوظيف وبالتالي تقديم إمكان التفاعل. وتطويع المستعمل بنيته الجسدية لملء ثغرات محدودية وظائف المنتج ومنحه أرغونومية أو امتدادا جسديا يغطي عيوبه فحين يشعر المستعمل بعدم الارتياح أثناء استعمال مقعد عمومي فإنه يقوم بتوظيف جسده وتوضيبه. فالرّغبة هنا تمنحه أفق ابتكار وإبداع وجوده وتخلق أسلوبا خاص في الظّهور.

والأسلوب هنا ليس إمكانية متعلقة فقط بابتكار أو توضيب جسدي بل هو أوّلا إمكانية جمالية للحياة وهو بالتالي" مشروع التفكير في الجسد" والذي يتوخى ليس فحسب عودة الإنسان للجسد عوض الاعتماد الدوغمائي والوثوقي لما يقدمه المنتج متعدد الوظائف أو المنتج المتطوّر، والذي لا ينتمي إلى مفهوم الوظيفة الموحدة والبسيطة والاختزاليّة بل هو مشروع عودة للجسد الانساني ولكينونته الوجودية.

---

[3]Sophie Dubuisson, Antoine Hennion, **Le design : l'objet dans l'usage : La relation objet-usage-usager dans le travail de trois agences**, (Presses des mines, France-Paris, 1996), p.39

تتآلف الكينونة البشريّة مع وظيفة المنتج الأساسية ليحقّقا معا مشروع ابتكار الحاضر بما هو حضور جسدي حرّ. يفتح هذا الحضور الحقّ في الحريّة من خلال "**تصعيد الرّغبة**" كمحرّك أساسي لامتلاك الفعل وتوليد مساره، وتعلية وظائف استراتيجيّة جديدة تنضاف إلى الوظيفة الأساسيّة الظّاهرة من المنتج.

المبحث الثالث: تقاطع الاستراتيجيّة مع نمط الحياة: وظيفيّة المنتوج بين المحدوديّة والخلق الاجتماعي

تخوّل المساحة المسموحة للإبداع الجسدي مساحة أخرى يكفلها الحقّ المشروع لتجاوز وظيفة المنتج وبالتّالي الاستمتاع بحركة الجسد عبر أفعال يمكن أن تكون كالآتي، الاتكاء بأساليب طريفة على المقاعد"،" إلقاء المهملات بكيفيّات لا تخلو من طرافة وتفرّد ..."، طاقة لامتناهية في التعاطي مع المنتوج وبثّ الحياة في المادّة بعد أن أوشكنا أن نصدّق فكرة موت الموضوعة والإعلان عنها.

الوظيفية هي دائما إحياء لذاكرة الجسد المنسية عبر الممارسة والفعل والاستقبال والعطاء بين المتلقي والمنتوج التأثيثي.

يتموضع هنا المصمّم كفاعل فعل في بيئته وكصانع للدّلالة، بما أنّه يلبّي قيما روحيّة تتماهى مع الرّوابط والحالات الاجتماعيّة السّائدة، والمنتج الوظيفي يأخذ أبعادا أخرى **استراتيجيّة** عبر الممارسة غير التي جُهّزت له في التصميم.

في المقابل، يتحقّق البعد الاستراتيجي من خلال التّصميم ذاته، حيث أنّ استراتيجيّات التّصميم ماهي إلاّ أخذ وتوفيق، واستلهام من روح العصر، ومن قيمه.

وعليه، تتيح الدّلالة الاستراتيجيّة إمكانيّة موضعة استراتيجيّات التّصميم وفق الاستراتيجيّات المعيشيّة للكون الاجتماعي.

إنّنا نقصد بذلك **مسارا توليديّا (Parcours génératif)** لممارسة استراتيجيّة كانت شاهدة على آثار حركات الفنيّة **رسّخت** أسلوب حياة طبعتها بصمات فنيّة ذات خصوصيّات رمزيّة. من هذا المنطلق، يمكننا أن نعتبر أنّ الجمال الحقيقي ليس بالجمال النّابع من الموضوعة المُدركة أو التّصميم المُدرك بقدر ما هو جمال جذّرته معايشة الحركة الفنيّة أو المفهوم في ذاته وتقليعاته.

في هذا السياق لم يتلقّ معظم النّاس دراسة أكاديميّة عن الأحجام فهم لا يعرفون كيفية التعبير عن مشاعرهم، وهم لا يعرفون حتّى أسباب هذه الانفعالات من عدمها، إنّها قضيّة شائكة تتعلق باللاّوعي.

من هذا المنطلق، نتبين أن لكل حقبة تاريخية معاييرها وجماليّاتها التي لا تتناسب ضرورة مع معايير وجماليّات العصر الذي يليه، والجمال هنا لا يكمن في موضوع معيّن، بل يتعلّق الأمر بتمثّلات ذهنيّة يختزنها المجتمع عن ثقافته وكينونته التي يجتسّها من الزّمن ومن خلاله.

بهذا التصوّر، يتمثّل الأفراد حاضرهم الحيّ من خلال ما يمدّه لهم الأثاث الحضري من هيئات وتصوّرات غابرة كانت قد مرّت على إدراكاتهم الحسيّة والعقليّة، إنّها **"كائنات انتقاليّة" (objet transitionnel)** أو"تجربة انتقاليّة" و"ظواهر انتقاليّة" على حدّ تعبير "دونالد وينكوت" (Donald Woods Winnicott) لأنّها كائنات وتصاميم وجدت في فترات تاريخيّة ماضية بعينها تعود للرّجوع مجدّدا بمجرّد رؤيتها، وبذلك تتوسّط الموضوعات بين مفارقات زمنيّة فواصلها قد تكون متقطّعة أو مستمرّة، مستغرقة أو مؤقّتة تستعيد خلالها الذات الانفعاليّة مشاهد متبادلة كانت قد خُزّنت في الذّاكرة ضمن مراحل وجوديّة متنوّعة من حياة الانسان وفي مختلف مراحله العمريّة. فمن خلال هذا الرّوابط الخياليّة التي يُكوّنها الطّفل عن فضاءه الخارجي ينفصل تدريجيّا على نحو متصاعد زمنيّا، ويصبح قادرا على التّمييز بين العالمين الدّاخلي والخارجي بشكل منطقي، يؤدّي هذا النّماء الانساني إلى استحضار الخيال والرّموز واستنباط الخصائص الإنشائيّة المرئيّة واللاّمرئيّة (الشعريّة) أو إلى استخراج المضامين والأنظمة القيميّة وأهمّها القيم الاستعماليّة والقيم التبادليّة من التّصاميم. "**فلا غرابة أن تصنّف العلاقة التي تجمع الذّات بوحدات أثاث الشّارع على أنّها علاقة انتقالية، ترتكز على أساس الإعلاء والاتّصال**"[5].

على هذا الأساس تكرّس وحدات الأثاث للصّورة التي يستطبنها الفرد داخله عن الفضاء وتفاصيله. هذا الانتقال النّفسي للمجتمع من الممارسة إلى الدُّربة على الانطباع والذّاكرة، يكرّس لديمومة هذا الطّراز واستدامته زمنيّا.

[5] Pierre Loubier, **Le Poète au labyrinthe : Ville, erance, écriture**, (Ens-Lsh Editions, France-lyon, 1 avril 2002), p. 90

إنّ خصوصية هذه الموضوعات التي تتّسم بالمحدوديّة الوظيفيّة والمتميزة بالبساطة والصرامة في آن تقيم لقدسيتها الذاتيّة."**فنحن غالبا لا نحتاج مقاعد مريحة، يشبه الأمر ويكاد يتطابق مع فكرة عدم حاجتنا إلى سكاكين على غاية من الحدّة**[6]. "

المبحث الرّابع: من السّيميوطيقا البصريّة إلى تجذير سيميوطيقا الممارسة

يقترن عادة فهم الوظيفيّة أو "المبدأ الوظيفي القائم على التوتّر بين الوظيفة والشّكل، على أنّها متساوية مع البحث عن حقيقة التّصميم، لكنّنا وبهذه الحقيقة يصبح تفكيرنا في الوظيفيّة أبترا أو منقوصا." **فإمّا أن نعترف بالقصور أو أن ننخرط في التّفكير الإبداعي، بأن نلقي خارج تخوم تفكيرنا كلّ تفكير مقيّد بأغلال العادة وأن نندفع نحو توسيع دائرة الدّلالات المتعلّقة بالتّصميم**"[7]. في هذا الصّدد اتّجهت أبحاث "جون ماري فلوش" (Jean Marie Floch) نحو تجاوز المبدأ الوظيفي وتوجيه النّقاش نحو موضوع توتّر قيمة ممارسات المرسل وقيمة ممارسات المرسل إليه.

فلا يكفي أن نقترح مخطّطات تعبيريّة تحلّل الوظائف الأساسيّة للتّصاميم، بل نحن نأمل في اكتشاف مسلك آخر مفتوح يستمدّ مبادئه من السيميوطيقا البصريّة وسيميوطيقا الممارسة ومرتكزاتهما. **ف"أن يحتوي المفهوم الوظيفي بحيثيّاته مجتمعا بأسره، فمعناه أن يتسنّى للنّاس من خلاله الاتصال بصريّا سريعا وبراحة، وباستمرار**"[8]. لكنّ ماهو جدير بالذكر في نفس هذا السّياق، أنّ السيميوطيقا البصريّة قد اهتمّت بالنّتاجات ذات البعدين الثّنائيّ على حساب النّتاجات ذات الأبعاد الثّلاثيّة، فنحن بتحليلنا هذا استثنينا ما "**أيّدته نظريّات الفنّ السّابقة في مجال الفنون البصريّة، والتي جاد بها كلّ من "رايجيل" و"رايد" (Read) و(Reagil)**"[9]، لنتبنّى في مسار مناقشتنا هذه ما جاد به "جون ماري فلوش" إلى السّيميوطيقا البصريّة ذات الأبعاد الثّلاثة، والذي اقترح فيها مسارا آخر عملي أثرى به استراتيجيّة "جاك فونتاني".

يعتمد مسار جاك فونتاني على الأبعاد الاستراتيجيّة التي عبّر عنها "جون ماري فلوش" بالحلول الاستراتيجيّة التي يظفر بها **الفاعل الإجرائي (Sujet opératoire)** أثناء مواجهته لمعيقات أو عقبات عابرة أو قارّة كان

[6] Sophie Dubuisson, Antoine Hennion, Op.Cit, p. 40.
[7] Raymond Guidot, ***Histoire du design. 1940–2000***, (Frenand Hazan, Paris, 2000). P. 18.19
[8] Sophie Dubuisson, Antoine Hennion, **Op.Cit**, p. 40.
[9] Anne Beyaert-Geslin, « Les chaises. Prélude à une sémiotique du design », **presses Universitaire de liége**,(numéro 297, 31 décembre 2010), p.3.

قد ألفها والتي تعترضه في كلّ مرّة يلتمس فيها **إنجاز (performance)** الهدف من الممارسة والذي يمثّل **موضوع القيمة (de valeur objet).**

في هذا الصّدد نأخذ المقاعد المنتصبة والواقيات المخصّصة للحافلات على حافات بعض الأرصفة كمثال حيّ وقويّ يعكس تكتّل العقبات الحركيّة والمروريّة وكثرتها، والذي قد تقف حائلا أحيانا دون تمكين الذات العامليّة من إنجاز الفعل وإتمامه أي الظّفر بمكان يؤهّلها إلى جلوس والانتظار. وهذا يعني أنّ كثرة حضور العقبات أثناء الاستعمال قد يمنع الذات العامليّة من التحوّل إلى فاعل إجرائي.

لكن ومهما كان الضّرف، تتماشى هذه الوضعيّات جميعها مع ما اعتبره ميشال دي سيرتو "**التعامل مع" أو "أساليب حركيّة" أو "كيفيّات الفعل"، أو حتّى ما عبّر عنه ب"حيلة الاستهلاك". (Certeau 1990, page 50)** " [10]تحيل جميع هذه الصّيغ إلى إبداع الفاعل الإجرائي للمعيش اليومي الحضري الذي أصبح ذو طابعا تكتيكيّا مستترا أو بالأحرى فلنقل أنّه أصبح يأوي أحداثا فوريّة ذكيّة معقّدة تتغيّر بتغيّر التّراتيب التي قد تواجه الذّات العامليّة.

المبحث الخامس: انفتاحيّات الممارسات

إنّ الطّابع التّكتيكي الممارساتي يتكوّن هو ذاته من كيفيّات متعدّدة للفعل والتصرّف، بدورها، "**تشكّل هذه الكيفيّات على تعدّدها تعيينات متنوّعة من الممارسات التي تُنجزها الذّوات والأنوات ضمن فضاء دلالي مصغّر، والتي تفضي بهم إلى الشّعور بامتلاك هذا الفضاء المنظّم بتقنيات، هي في الواقع تقنيات من إنتاج سوسيوثقافي محض**"[11].

وفق ذلك، فإنّ لكلّ وضعيّة معقّدة أو حسّاسة أفقها الاستراتيجي. يتحدّد على أساسها التّدبير الاستراتيجي الخاصّ الذي يأتي به المستعمل باستمرار وينتجه بذاته. وعلى هذا النّهج أيضا يمكن أن يجد المصمّم المهني نفسه مدعوّا إلى "**نمذجة المستعملين وتصنيفهم كلّ حسب الكفاءة والقدرة والآداء، يحتاج الأمر إلى تسليط الضّوء على الجهد الاستراتيجي البشري وأفقه الاستعمالي الذي سيحدّد إن كان سيثمّن أو**

[10]Nathalie Roelens, « Sémiotique urbaine et géocritique », **presses Universitaire de liége**, numéro 485, 31 décembre 2014, p. 40.
[11]Ibid.

سيهمّش عائقا على حساب آخر"[12]وهكذا ينتهي به المطاف إلى موضعة العلاقة الأصليّة والأوليّة للإنسان بالعالم بصفتهما شرطا استراتيجيّا ماقبل موضوعيّا لعلم التّصميم. ففي الوجود اليومي عوالم متنوّعة من الممارسات تختلف باختلاف الشّرائح الاجتماعيّة (الطبقيّة، والانتمائية، والعمريّة، والوظيفيّة) غاياتها وحاجياتها.

على هذه الوتيرة يختلف أفق ممارسة العامل الكادح –البائع المتجوّل–الذي يستثمر أجزاء المقعد لوضع بعض أغراضه على حوافّ هذا المقعد أو ذاك عن أفق الطّالب الجامعي الذي قد تلمحه يجلس على المقعد ينجز فرضه الجامعي كقراءة كتاب، والذي يختلف بدوه عن أفق الفنّان الذي قد يؤدّي عروضا قياسيّة على رصيف أحد الشوارع.

صورة رقم (1) توضّح أفق استعمال البائع المتجوّل للوحدات التأثيثيّة الحضريّة في فضاء مدينة سوسة قرب باب بحر خارج سور المدينة العتيقة التّونسيّة

[12]Jacque Fontanille, zinna Alessandro, « Les objets au quotidien », (**Nouveaux Actes Sémotiques-Recueil**), Presses Universitaire de Limoges, Limoges, 2005, P.201.

صورة رقم (2) توضّح أفق استعمال المواطن للوحدات التأثيثيّة الحضريّة في فضاء مدينة سوسة قرب باب بحر خارج سور المدينة العتيقة التّونسيّة

على نفس تلك الوتيرة، يختلف أفق المرأة، عن أفق الطّفل، والذي يختلف عن أفق السّياسي، فلمثل هذه الأسباب نقول عن التّجارة عالم التّجارة، وعن الجامعة عالم الجامعة وعن المرأة عالم المرأة، وعن الطّفل عالم الطّفل، وعن الفنّ عالم الفنّ... فلكلّ أفق غاياته والاحتياجات الخاصّة به.

في هذا السّياق، صرّح كُلاوس هيلْد في المحاضرة التي ألقاها عن العالم والأشياء، والتي سعى من خلالها إلى فهم فلسفة هايديغير حول ثنائيّة التّصميم والذّات قائلا: "**قد يعتبر المرء أنّ العالم اليومي هو أيضا كليّة، أي جملة الأشياء لليد من أجل الاستعمال، إلاّ أنّه قد تبيّن بالضبط أنّ العالم اليومي ليس له طابع جملة من الأشياء بل طابع الأفق، أي طابع سياق شامل داخله نعيش ونتوجّه إلى الأشياء، وذلك لأنّنا نفهم كيفيّة استعمالها انطلاقا من السّياق.**[13]"

[13] كُلاوس هيلْد، "العالم والأشياء: قراءة لفلسفة مارتن هايديجر"، (ترجمة إسماعيل المصدّق)، **مجلّة فكر ونقد**، (المجلّد 19، العدد 1، سبتمبر 1997).

إنّ فهم الدّلالات الوظيفيّة في تصميم وحدات أثاث الشارع واستيعاب صيرورة علاماتها الاستدلاليّة استيعابا جيّدا لا يكون إلاّ براغماتيّا، حيث يستطيع من خلاله الملاحظ عن كثب إعادة تبليغ المحتوى الصّائب للتّصميم والتصوّر السّليم له، أي انطلاقا من الكيفيّات الخاصّة التي تُمارس بها السيميوطيقا. إذن يظهر سياق الممارسات الواقعيّة للتّصميم عبر تأصيل الوظيفيّة وذلك بالحفر في سمطقتها. ومن خلال نشاطها الحيّ والمعاش الذي يفسح مجالا بدوره من خلال تسليط الأضواء على الخطاطات التوتّريّة أو التّبيانات (schématisations tensives) لدخول حيّز النّفاذ الفعّال (المنهج التّطبيقي الذي اقترحه جاك فونتاني) إلى المخطّطات المحايثة ل"أنساق الممارسات.

الخاتمة:

قصدنا من تعيين ماهية الوظيفة ارتباطها بالمجالات المعرفيّة الأخرى التي تنتمي إليها مفردات أثاث الشّارع، ومن حيث ارتباطها الوثيق بمفهوم وظائف المجتمع ووظيفة التّصميم الحضري ووظيفة المصمم ككل متكامل... لهذا السبب آثرنا تحليل التصميم ضمن معجم دلالي سيميوطيقي بعينه، ويعود ذلك بالأساس إلى تلك العلاقة التبادليّة بين المصمّمين والسميوطقيين الذين ينبغي أن يشتغلوا على نفس الحقل الدلالي والمفاهيمي الذي كان اشتغل عليه علماء الاجتماع سابقا في البناء الوظيفي، لأنّ المفهوم ظلّ لدى المصممين حبيس وظيفة واحدة محدودة.

قائمة المراجع:

المراجع باللّغة العربيّة

- آمال برواق تحت إشراف د. فايزة يخلف، سيميولوجيا الفضاء ودلالة التمثّلات المعماريّة، (ماجستير تخصّص سيميولوجيا الاتّصال)، جامعة الجزائر 03، كليّة العلوم السياسيّة والإعلام، قسم علوم الاتّصال والإعلام، الجزائر–قسنطينة، 2011/ 2012، ص 150.
- رمضان بسطاويسي رمضان غانم، جماليّات الفنون وفلسفة تاريخ الفنّ عند هيجل، (المؤسّسة الجامعيّة لدراسات النّشر والتّوزيع، لبنان، 1996)، ص.20.
- كْلاوس هيلْد، "العالم والأشياء: قراءة لفلسفة مارتن هايديجر"، (ترجمة إسماعيل المصدّق)، **مجلّة فكر ونقد**، (المجلّد 19، العدد 1، سبتمبر 1997).

المراجع باللّغة الأجنبيّة:

- Anne Beyaert-Geslin, « Les chaises. Prélude à une sémiotique du design », **presses Universitaire de liége**,(numéro 297, 31 décembre 2010), p.3.
- Jacque Fontanille, Zinna Alessandro, « Les objets au quotidien », (**Nouveaux Actes Sémotiques-Recueil**), Presses Universitaire de Limoges, Limoges, 2005, P.201.
- Nathalie Roelens, « Sémiotique urbaine et géocritique », **presses Universitaire de liége**, numéro 485, 31 décembre 2014, p. 40.
- Pierre Loubier, **Le Poète au labyrinthe : Ville, erance, écriture**, (Ens-Lsh Editions, France-lyon, 1 avril 2002), p. 90
- Raymond Guidot, ***Histoire du design. 1940–2000***, (Frenand Hazan, Paris, 2000). P. 18, 19.
- Sophie Dubuisson, Antoine Hennion, **Le design : l'objet dans l'usage : La relation objet-usage-usager dans le travail de trois agences**, (Presses des mines, France-Paris, 1996), p.39.